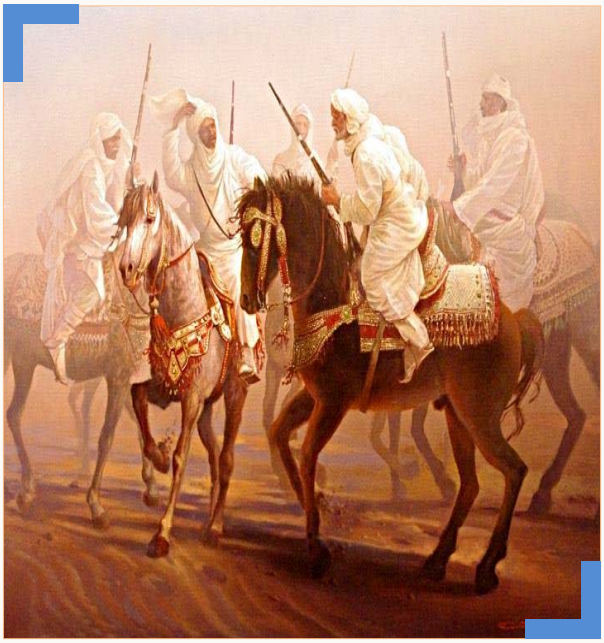

ثورات المدن في المغرب الأقصى الحديث "مدينة فاس في عهد السلطان المولى إسماعيل (١٦٧٢ - ١٧٢٧)"

د. الحاج ساسيوي الفيلالي

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

المركز الجهوي للتكوين

مكناس – المملكة المغربية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

الحاج ساسيوي الفيلالي، ثورات المدن في المغرب الأقصى الحديث: مدينة فاس في عهد السلطان المولى إسماعيل (١٦٧٢ - ١٧٢٧).- دورية كان التاريخية.- العدد السابع عشر؛ سبتمبر ٢٠١٢. ص ٦١ – ٦٦.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

خمسة أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ – ٢٠١٢

ملخص

إن الباحث في تاريخ علاقات السلطان العلوي المولى إسماعيل (١٦٧٢ - ١٧٢٧م) بمدينة فاس الثائرة، يلاحظ أنها كانت تتراوح بين المهادنة والصراع، بحسب الظرفية والمستجدات الداخلية والخارجية؛ وكذا بحسب تنوع مكونات المجتمع الفاسي. فعند الرجوع إلى فترة خلافته لأخيه المولى الرشيد على هذه المدينة، نلاحظ أنها اتسمت بالانقسامية والفوضى واضطراب الأوضاع، وبمجرد عقد بيعته (المولى إسماعيل)، حملت المدينة مشعل الثورة التي اتسع نطاقها، حتى أنه تم قتل القواد، وفي مقدمتهم القائد زيدان بن عبيد العامري. ولم يقتصر دور المدينة على ما ذكر فقط، بل تعداه إلى أبعد من ذلك في إطار صراعها مع السلطان إلى مبايعة بعض الزعامات الخارجة عن سلطته، من قبيل: ابن أخيه أحمد بن محرز، والخضر غيلان وأولاد النقسيس.

وأمام هذه الوضعية لجأ السلطان إلى معاقبة المدينة الثائرة، وذلك بفرض الحصار عليها، ونهج سياسة التفرقة بين مكونات مجتمعها. وفي نفس السياق تبنى سياسة جبائية مجحفة في حقها، بغية إضعاف قواها وإنهاك كاهلها؛ فبالإضافة إلى الضرائب الشرعية من زكاة وأعشار وغيرها، تم فرض جملة من الضرائب غير الشرعية عليها، كالمكوس والغرامات،... مما دفع فئات اجتماعية فاسية ميسورة إلى مغادرة المدينة. وفور وصول خبر وفاة السلطان المولى إسماعيل إلى الحاضرة الإدريسية (مدينة فاس)، تم الانتقام حتى أنه وصل حد الإعدام في أبشع صوره، خاصةً في حق القواد والولاة؛ مما عجل بدخول الدولة المغربية في فترة عصيبة ومضطربة، نُعتت بفترة "الأزمة"، التي امتدت ثلاثين سنة.

مقدمة

لا غرو أن مدينة فاس لعبت دورًا متميزًا وفعالاً في تاريخ الدولة المغربية عمومًا، والعلوية على وجه الخصوص عبر مختلف مراحلها، الأمر الذي جعل المؤرخين يولون اهتمامهم شطرها؛ إلا أن هذا الاهتمام لا يخلو من نقائص، من قبيل التركيز على الرواية الكمية، والتي تصل أحيانًا حد التناقض والتضاد؛ وأحيانًا أخرى الغموض والإضمار؛ وإصدار أحكام قد تكون متسرعة، مما يجعل مهمة الدارس لها في غاية الصعوبة والتعقيد؛ خصوصًا عندما يرصد العلاقات المركبة والمتداخلة التي ميزت هذه المدينة الثائرة (فاس) بالسلطان العلوي المولى إسماعيل.

وتجدر الإشارة إلى؛ أن أولى الثورات الفاسية اندلعت شرارتها مباشرة مع بزوغ العهد الإسماعيلي، فأدرك بذلك السلطان الخطورة والأهمية التي تكتسيها هذه المدينة، علمًا أنه قد احتك بها أيام خلافته لأخيه عليها. فما هي يا ترى حيثيات وظروف هذه الثورات؟ وما هي مميزاتها؟ وما هي السياسة الإدارية التي نهجها السلطان بالحاضرة الإدريسية (فاس)، حاملة مشعل الثورة؟ وكيف كانت علاقته بالقوى الاجتماعية الفاسية؟.. تلك الأسئلة وغيرها، ستشكل الإجابة عليها مسعى هذه الدراسة.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

ثورات المدن في المغرب الأقصى الحديث

قبل تسلم المولى إسماعيل زمام الحكم، نجد المصادر التي تناولت أحداث الدولة العلوية قد أشارت إلى توليه إحدى المدن أيام أخيه المولى الرشيد، إلا أنها لم تتفق في تحديد ولايته لمدينة بعينها؛ فرأي يذهب إلى كونه نائبًا بفاس،[١] بينما يرى آخرون أنه كان خليفة بمدينة مكناس وبلاد الغرب.[٢] ويبدو أن سبب هذا الاختلاف يرجع إلى تولية المولى إسماعيل بمكناس، ونظرًا لحنكته أضاف إليه السلطان ولاية فاس، شفيعنا في ذلك ما ذهب إليه الإفراني قائلاً: "... فاستخلفه - المولى الرشيد- على مكناس الزيتون، لأنه اختبر سيرته ونجابته، فرأى من فطنته ما زاد به ولوعًا، وكساه محبة عنده، وزاده فاس وأسكنه بها".[٣]

ومهما يكن، فإن بعض المصادر تسجل أن الجو السياسي الذي عايشه المولى إسماعيل إبان ولايته على مدينة فاس تميز بطابع الانقسامية والفوضى، فضلاً عن اضطراب الأوضاع؛ وهذا ما يشير إليه صاحب "الترجمان" من أن المولى إسماعيل قد "... قتل ستين من أولاد جامع[٤] على قطع الطريق، وعلقهم بالبرج الجديد".[٥] فهل يمكن أن نتساءل عم لهذه الأحداث من دور في تشكيل شخصية المولى إسماعيل، وتأطير أفكاره السياسية فيما بعد اتجاه هذه المدينة؟.

بمجرد الإعلان عن وفاة السلطان المولى الرشيد، تم عقد البيعة لأخيه المولى إسماعيل؛[٦] وهو يومئذ واليًا على مدينة فاس، إذ حضرتها شخصيات بارزة كعبد القادر الفاسي، وأبي علي اليوسي،[٧] ومحمد بن علي الفيلالي، وأبي زيد عبد الرحمان الفاسي، ومحمد بن الحسن المجاطي المكناسي.[٨] وأضاف صاحب "الحلل البهية" حضور كل من أبي العباس أحمد بن سعيد المزجلدي؛[٩] وأبي عبد الله محمد بن عبد القادر الفاسي،[١٠] والقاضي الأعدل أبي مدين السوسي المكناسي، وغيرهم.[١١] وتكاد تجمع المصادر أنه بمجرد عقد هذه البيعة ثارت مدينة فاس، كما عمت الفوضى أرجاء أخرى من البلاد.[١٢]

فما هي الأسباب والدواعي التي جعلت أهل مدينة فاس يعلنون العصيان؟ وما هي الظروف التي قامت فيها الثورة الفاسية؟ وما هي الإجراءات والتدابير التي نهجها المولى إسماعيل للقضاء عليها؟.. أسئلة كثيرة ومتداخلة إلى حد التعقيد، الشيء الذي يجعل الإجابة عليها ليست بالهينة، وهذا ما يدفعنا إلى إثارة افتراضات عليها تذلل صعوبات هذه الأسئلة. ألم تكن عملية تغيير العاصمة السياسة من فاس إلى مكناس سببًا في ذلك؟ أم الأمر راجع إلى طبيعة السياسة التي نهجها السلطان إبان خلافته بها؟.

إن أول ما يثير الانتباه، ويبعث على التمحيص هو ذلك "القرار الجريء" الذي اتخذه المولى إسماعيل، والمتمثل في استبدال فاس بمكناس عاصمة لملكه. ومما يزيد من الحيرة، أن المصادر لا تسعفنا في الكشف عن أسباب ذلك التغيير، فالناصري يعلله بما كان لمكناس من مزايا طبيعية "كصحة هوائها وعذوبة مائها"،[١٣] في حين نجد أحد الدارسين[١٤] يذهب إلى أبعد من ذلك، عندما يعزي السبب إلى نقل المولى إسماعيل للأسرى المسيحيين لتشغيلهم بمدينة مكناس. ونعتقد أن هذه التبريرات لا ترقى إلى مستوى الإقناع في موضوع شائك يحتاج إلى المزيد من الدراسة والتنقيب في ثنايا المصادر للكشف عن حقيقة ذلك.

وعلى أية حال؛ فإن الثورة السالفة الذكر اتسمت بالشدة والاتساع، حتى أنه كان من نتائجها قتل القائد زيدان بن عبيد العامري،[١٥] وبذلك تكون فاس قد دشنت عهدًا ينذر بالصراع والتوتر، وربما يرجع ذلك إلى ما اختزنته ذاكرة أهل فاس من موروث اتجاه السلطان الجديد. وعلى إثر ذلك نشب صراع بين الجانبين إلى أن تمكن السلطان من محاصرتها.[١٦] ومما زاد من تفاقم الوضع أنهم "بعثوا- أهل فاس- لابن أخيه مولاي أحمد بن محرز يأتيهم ليبايعوه، فقدم لدبدو،[١٧] ووجه لهم كتابًا مع رقاص،[١٨] فأعلنوا بنصره في المدينة، وبالليل وجهوا عشرة من الخيل للقائه بتازة".[١٩] وعلى إثر هذا التصرف عدل المولى إسماعيل عن الحملة التي كان قد جهزها للصحراء، ورجع لفاس الجديد، وحاصرها مدة أربعة عشر شهرًا.

وفي ظل هذا الجو المشحون بالتوتر توجه شرفاء فاس وفقهاؤها بطلب العفو من السلطان فعفا عنهم وسامحهم، وجعل على فاس الجديد عبد الرحمن النزاري،[٢٠] وعلى فاس القديم أحمد التلمساني؛ ورجع بعدها لمكناس.[٢١] فإلى أي سبب يمكن أن نعزي هذا التصرف من كلا الجانبين، المتسم تارة بالتوتر وأخرى بالمهادنة؟ فطابع الاستقرار يكاد يغيب في علاقتهما؛ فالذي يبدو أن القوى الفاسية تعلن عصيانها للمخزن كلما شعرت بأن قوتها وصفها الداخلي محصن، وبإمكانه خلخلة تراتيبية المخزن، موظفة كل فئاتها من "مثقفين" وعلماء وجنود وغيرهم. بينما تتسم العلاقات بين الجانبين بالمهادنة في حال رجحان كفة المخزن، وإلا فغالبًا ما يكون الحسم في مثل هذه القضايا للغة العنف. ويمكن أن نستشف ذلك من خلال ما نصح به سيدي أحمد بن عبد الله ثوار أهل فاس حيث قال لهم: "لابد لكم إلى يده ترجعون، ولا يدخلها عنوة بل صلحا".[٢٢]

لقد نهج المولى إسماعيل سياسة "التفرقة" بين مكونات المجتمع الفاسي هادفًا إلى إضعاف جبهتهم، وهو ما يتضح من الرسالة التي بعثها لفئات فاسية معينة يقول فيها: "وفي الحقيقة، الأندلسيون واللمطيون هم أهل فاس...، وأما غيركم فما ثم إلا الدجاج الأبيض، ومن لا يعد لا في العير ولا في النفير من البلدية[٢٣] وغيرهم، ولم غطيتم رؤوسكم ورجعتم إلى الحرف والفلاحة وسلمتم الكلام للبلديين، كم من واحد منكم يغرس الجنان الذي قيمته أربعمائة مثقال ويبيعه للبلديين! ورضيتم بالاستكانة والخمود والمهانة".[٢٤]

وبالرجوع إلى الوضع العام، وكذا باستحضار علاقة المدينة بالزعامات الثائرة، فإن ثورة أهل فاس بعيد بيعة السلطان حدثت في ظروف سياسية داخلية جد دقيقة، إذا علمنا من خلال مباشرة

دورية إلكترونية، مُحكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

بعض المصادر التي تناولت أحداث الفترة أن البلاد كانت على وشك الانقسام والتجزئة من جديد؛ ففي الجنوب ثار (أحمد بن محرز) الذي كان يطمح إلى الاستيلاء على السلطة، فاتخذ من تارودانت عاصمة له، فقويت شوكته بعد دعوة فاس لاستقباله، فانتقل إلى دبدو - كما سبقت الإشارة - في انتظار الدخول إلى فاس، خاصةً بعدما "نادوا بنصره في الأسواق وغيرها عند الزوال من يوم الخميس في عشرين من جمادى الثانية من العام ١٠٨٣ هـ".[٢٥]

وبموازاة مع ذلك، كان يهدد السلطان خطر آخر يتمثل في تلك الأسر التي كانت تتمتع بحكم مستقل، ونخص بالذكر: الخضر غيلان، وأولاد النقسيس[٢٦] بحيث كانت تشكل ثورتاهما المنظمتان خطرًا حقيقيًا كاد لا يسمح باستقرار دعائم السلطة المخزنية الجديدة، لذلك تخلى السلطان عن عدوه المرحلي (أحمد بن محرز)، ليوجه اهتمامه إلى القضاء على ثورتي الخضر غيلان وأولاد النقسيس كأعداء استراتيجيين. ويظهر ما ذهبنا إليه من خلال هذا التصنيف حجم العقوبات التي أنزلها بكل منهما، وذلك حسب الخطر الذي يحدثه كلا الطرفين، بل نود أن نشير إلى أن المولى إسماعيل كان يقدر خطر أولاد النقسيس منذ أن كان واليًا لأخيه بفاس، إذ عمل على استئصال شأفتهم، وذلك بعد أن أعدم من كان منهم بسجون فاس.[٢٧] ويظهر أن هؤلاء المساجين هم أصحاب المقدم أحمد بن عيسى النقسيس[٢٨] الذي كان سلفه المولى الرشيد قد سجنهم بفاس سنة ١٠٧٨هـ/ ١٦٦٧م.[٢٩]

أما عدوه الاستراتيجي الثاني، وهو الخضر غيلان الذي توجه إليه السلطان لمنازلته والقضاء على حركته، والذي كان يخشى من تفاقم ثورته المدعمة من أتراك الجزائر، وهو ما يؤكده الزياني من أن "رقاص الخضر غيلان قد ورد على فاس يخبرهم بقدومه من الجزائر في البحر".[٣٠] فتوجه السلطان إلى الغرب تاركًا المجال لأحمد بن محرز للدخول إلى فاس، وهو ما رصده القادري قائلاً: "ولما كف مولانا إسماعيل عن قتال ابن أخيه مولاي أحمد وسار إلى حرب غيلان، سار مولاي أحمد إلى فاس مع من كان معه من أهلها بتازا، فدخل مدينة فاس الإدريسية سنة ١٠٨٣ هـ، وبايعه أهلها، وخطب له في منابرها، ومضت أوامره وأحكامه بها، واستوطن دار الملك من فاس المرينية العليا"؛[٣١] إلا أن هذا الوضع سوف لن يستمر طويلاً، ذلك أنه لما تمكن السلطان من الخضر غيلان وقضى على ثورته، حيث قُتل هذا الأخير سنة ١٠٨٤ هـ/ ١٦٧٤م، رجع المولى إسماعيل إلى فاس الجديد التي فر منها ابن أخيه المولى أحمد بن محرز، وفرض عليها حصارًا كان من نتائجه أن قصد "فقهاء فاس القديم فاس الجديد طالبين الصلح من مولاي إسماعيل بعد أن طلبوا ذلك، وفي غد طلع جميع أهل فاس، وتم الصلح، فكانت مدة حصارهم وحربهم معه عامًا واحدًا وشهرين اثنين وثمانية عشر يوما".[٣٢]

ويظهر من خلال هذه المدة التي لا يستهان بها مدى شدة المقاومة الفاسية التي لولا ضعف إمكانياتها لما استسلمت ولجأت إلى المهادنة، كنوع من الإعداد للقوة من جديد، لمواصلة مسلسل التمرد والعصيان اتجاه السلطة المخزنية الجديدة، فهل سيسمح لها السلطان بفترة من الهدوء والاستقرار حتى تستجمع أنفاسها، وتستنفر قوتها من جديد؟. وهكذا؛ فبمجرد ما أجهضت محاولة تحالف أهل فاس مع كل من أحمد بن محرز والخضر غيلان، تضررت مصالح الفاسيين وساءت أحوالهم، واضطربت أوضاعهم، ذلك أن أول ما يواجه الباحث أثناء تصفح المصادر المهتمة بدخول المولى إسماعيل إلى فاس بعد الحصار هو انقطاع الماء عن القرويين، فضلاً عن قلة المؤن، وغلاء الأسعار، وتردي الأوضاع المعيشية؛ وفي ذلك يقول الضعيف الرباطي: "... وفي أوائل عام أربعة وثمانين وألف انقطع ماء القرويين...".[٣٣] فهل كان هذا التصرف بداية لتطبيق سياسة التأديب اتجاه أهل فاس؟.

وفي غياب أي دليل يزكي هذا الطرح أو ينفيه يبقى نص الضعيف قاصرًا عن تقديم مفاتيح الأسباب الحقيقية لهذه العملية، وإن كنا على علم بأن أهل فاس القديم هم الذين ثاروا ضد السلطان. لكن يطالعنا نص آخر، نعتقد أن بإمكان مادته التاريخية تزكية الافتراض السابق، وإن كان صاحبه لا يدري هو أيضا الأسباب الداعية لمثل هذا التصرف! "وفيها وقع – ١٣ محرم ١٠٨٤ هـ- بمدينة فاس إحراق سبعة عشر حانوتا من سوق العطارين...وضاعت بذلك أموال، ولم أدر ما سببه".[٣٤] وبالتالي يمكن أن نستشف من خلال هذين النصين أن الوضعية التي أصبحت عليها مدينة فاس، تعكس تدهور مستوى الحياة الاقتصادية والاجتماعية؛ فإذا كان الضعيف لا يدري ما سبب هذا التدهور الذي أصاب مدينة فاس، وفي هذه الظروف بالذات، فإننا نعتقد من خلال الوقوف عند تتمة النص السابق أن الأمور كانت تسير وفق مخطط، هدفه تأديب سكان مدينة فاس من خلال القضاء على مقوماتهم المادية؛ وذلك عن طريق نهج سياسة "الردع والتخريب" غير المباشر.

والدليل على ذلك؛ أن السلطة المخزنية لم تتابع ملف إحراق الدكاكين؛ ولم تتحدث عن انقطاع الماء عن المدينة؛ وذلك تمهيدا لمرحلة أخرى يقول عنها الرباطي: "ولما رجع السلطان من مكناسة ولى أمر الناس - بفاس- لعبد الرحمن بن محمد بن عبد العزيز المغراوي، والقيادة لأحمد التلمساني، فتصرفوا في المدينة ونهبوا وسجنوا، وأخرجوا منها رحائل...".[٣٥] وهذا الإجراء -على ما يبدو- يستهدف أساسًا قطع رؤوس الثورة والتضييق عليهم وشل حركتهم، إذ أمر السلطان نوابه في المدينة بتنفيذ أوامره، ونخص بالذكر ساعده الأيمن حمدون الروسي الذي عاث في المدينة فسادًا، ويظهر ذلك بوضوح مباشرة بعد موت القائد عبد الله الروسي[٣٦] بمكناسة، "وفيها غضب السلطان على أهل فاس وبعث إليهم - في إطار سياسة التأديب- حمدون الروسي وأخاه أبا علي، وأمرهما بمصادرتهم، وقبض المال منهم، فبعثوا علماءهم وأشرافهم للشفاعة فلم يقبل، وشرعوا في دفع المال حتى لم يعرف له عدد، ولم يسلم

دورية إلكترونية، محكمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

من الغرامة أحد، وتغيب الناس في تلك المدة، وخلت المدينة من ذوي اليسار".[٣٧] وبذلك يكون مخطط السلطان التأديبي قد بلغ مرماه من خلال فرض الغرامة على السكان، وشل حركتهم الاقتصادية، الشيء الذي دفع بعض الميسورين إلى مغادرة الحاضرة الفاسية.

ويعتبر الامتناع عن دفعها عصيانًا يجلب سخط السلطان وغضبه، ذلك أنه في "أوائل رجب عام أربعة وثلاثين ومائة وألف غضب السلطان مولانا إسماعيل على أهل فاس غضبًا شديدًا أسخطه عليهم، وكلفهم بإعطاء أربعين قنطارًا من المال الناض، وبعث حمدون الروسي إليهم لقبضها منهم".[٣٨] وبالإضافة إلى الزكاة والأعشار، كان السلطان يفرض على أهل فاس المكوس على الأبواب والأسواق. وكانت تلك المغارم أو الوظائف تزداد ثقلاً كلما أتهم الفاسيون بالتمرد والعصيان أو شق عصا الطاعة؛ ففي سنة ١١١٤ هـ نجد السلطان قد وظف عليهم مغارم جد ثقيلة لا يقدر على حملها الحجر الصلب والحديد؛[٣٩] وذلك بعد اتهامهم بمحاولة بيعة ونصرة ابنه الثائر المولى محمد العالم، فكان "قربان التأديب" أن ألزمهم، دون استثناء، بدفع عظم سرج سنة ١١١٦ هـ؛[٤٠] علاوة على الضرائب والغرامات المالية المؤقتة التي كان يفرضها عماله على سكان مدينة فاس.[٤١]

ومما لاشك فيه؛ أن أحوال السكان قد ساءت بسبب هذه التعسفات والغرائم غير الشرعية،[٤٢] خاصة منها المكوس التي اثقلت كاهل الفاسيين، فاضطر بعضهم إلى التهرب من أدائها، موليًا وجهه صوب تلمسان؛ فكان السلطان يبيع منازلهم وأملاكهم بالمزاد العلني حتى يأخذ ما هم مطالبين به.[٤٣] ومن نافلة القول، أن المكوس الموظفة على أبواب فاس وأسواقها قد صادفت معارضة قوية، إذ اعتبرها المحتسب عبد الرحمن الفيلالي أمرًا غير شرعي يضر بالمسلمين، فطلب من عامل المدينة إلغاءها، ونفس الشيء قام به المرابط أحمد بن عبد الله.[44] وغالبًا ما كان أعيان فاس وشرفاؤها وعلماؤها يتصلون بالسلطان قصد إسقاط هذه الضرائب الجائرة وغير الشرعية؛ فكانت هذه الوساطة تنجح أحيانًا وتؤتي أكلها، كما هو الحال في سنة ١١١٤ هـ، "وذلك عندما ضاق سكان فاس القديم بالمغارم المالية الموظفة عليهم، فاتصل بعض الشرفاء بالمولى إسماعيل طالبين منه العفو، فاستجاب لهم".[٤٥]

إلا أن السلطان سرعان ما كان يتراجع عن قرارات الإعفاء، وذلك ما حدث في سنة ١١٢٩ هـ عندما زار ضريح المولى إدريس، فطلب منه أهل فاس إلغاء الضرائب الموظفة عليهم، فاستجاب لطلبهم، لكن نهه بعض مستشاريه وحذروه من عواقب هذا القرار، ذلك أن إعفاء سكان فاس سيشجع باقي المدن للمطالبة بنفس الامتياز؛ وهذا الأخير سيهدد النظام الضريبي الهش، ويخلق قلاقل داخلية للمخزن، الذي هو في غنى عنها. ولتفادي هذا الخطر بعث السلطان رسالة إلى أهل فاس يأمرهم فيها "بواحدة من اثنتين: إما أن تكونوا جيشًا، وإما أن تكونوا نوايب، لأن الناس إما جند وإما خدام"،[٤٦] لكن أعيان ووجهاء فاس تحفظوا ولم يجيبوا. الأمر الذي يعبر ضمنيًا عن رفض اقتراح السلطان وأمره.

ومما يوضح سخط الفاسيين على هذه الأوضاع، ما قاموا به من انتقام، بمجرد وصول خبر موت السلطان، وصل إلى حد الإعدام بأبشع الصور، خاصةً في حق أولئك القواد والولاة من عائلة الروسي؛ وفي هذا الصدد يقول صاحب "النشر": "ففي صبيحة اليوم الذي ورد فيه الخبر على فاس بموت السلطان - سنة ١١٣٩ هـ/ ١٧٢٧م - قتل أهل فاس قائده بها الرئيس أبا علي بن عبد الخالق بن عبد الله الروسي عامل السلطان على فاس، بما أضمروه له من الحقد لتصرفه فيهم بالمغارم، ولعدم اتخاذه منهم العمال... بعد أن حاول مدافعتهم وقتالهم، وتحصنه بالدار المقابلة لباب... مسجد الأندلس، وجمع الوتادين أصحابه بالعدة، فلم يغنه شيء من ذلك، ودخلوا عليه في داره وقتلوه، ومثل به بين الأزقة، وقتلوا من أصحابه من ظفروا به، ولم يفلت منهم إلا من تحصن بالحرمات...".[٤٧]

مجمل القول؛ يمكن الجزم به أن ثورة أهل فاس كانت نتيجة تفاعل مجموعة من العوامل المختلفة والمتداخلة: اجتماعية، وثقافية، ودينية واقتصادية، وسياسية،...إلخ. ويمكن اعتبار ثورة أهل فاس على قواد المخزن الإسماعيلي بمثابة الشرارة الأولى لاضطراب الأوضاع، وتفاقم الفتن منذرة بتشكل فترة تاريخية دامت ثلاثين سنة، أجمع كل المؤرخين على نعتها ب "فترة الأزمة".

خاتمة

مهما قيل وكُتب عن طبيعة الثورات الفاسية إبان عهد السلطان المولى إسماعيل، فإنها في حاجة إلى المزيد من الدراسات النوعية، إذ تعتبر بحق ذات طبيعة دقيقة وحساسة من تاريخ الدولة المغربية؛ فخلالها حاول السلطان توطيد أركان دولته وبسط هياكلها الإدارية، بعد فترة التأسيس الرشيدي. ولا يخامرنا شّك؛ أن الإجراءات التي اتخذها السلطان لم تكن إلا لترسخ طابع التنافر بين المدينة والمخزن، لأنها كانت تسير وفق وتيرة الثورات والتمردات التي أعلنتها المدينة؛ فواجه سياسة العصيان الفاسية بالعنف، الشيء الذي أضر بفئات عريضة من السكان، ما كانت لتغادر المدينة لولا خوفها من بطش بطانة السلطان وأعوانه؛ مما زاد من تفاقم الغضب الشعبي الفاسي، ونقمته على الجهاز المخزني الاسماعيلي.

دورية إلكترونية، مُحكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الهوامش:

(١) الزياني أبو القاسم، **الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب**، تحقيق وتقديم محمد غسان عبيد، الرباط، سنة ١٩٩٤م، ج٣، ص ٧٢٠. (نفس الرأي ذهب إليه كل من: القادري، **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني**، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٨٦/١٩٧٧م. وأحمد بن الحاج السلمي، **الدر المنتخب المستحسن في بعض مآثر أمير المؤمنين مولانا الحسن**، مخطوط الخزانة الملكية، الرباط، رقم: ١٩٢٠ ز. والإفراني، **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي**، طبعة ١٩٨٨م).

(٢) الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق وتعليق ولدي المؤلف (ذ. جعفر وذ. محمد)، دار الكتاب، الدار البيضاء، سنة ١٩٥٥م، ج٧، ص ٤٥.

(٣) نقلاً عن: عبد الله العمراني، **مولاي إسماعيل بن الشريف: حياته، سياسته ومآثره**، طبعة ١٣١٨ هـ/ ١٩٧٨م، ص ٥٢.

(٤) **أولاد جامع**: إحدى القبائل العربية الأصيلة، وهم من بني عوف، كانوا قبل وصولهم للمغرب بين قابس بتونس وعنابة بالمغرب الأوسط، ثم زحفوا للمغرب الأقصى ووصلوا لناحية فاس في القرن السادس عشر، وهم حاليًا بين جبل زلاغ وجبل تيفاوت.

للمزيد من التفصيل، أنظر: عبد الوهاب بن منصور، **قبائل المغرب**، المطبعة الملكية، الرباط، سنة ١٩٦٨م، ج١، ص ٤٠٩.

(٥) الزياني، الترجمان، م. س، ج ٣، ص ٧٢٠. ونفس القول نقله عنه الناصري، **الاستقصا**، م. س، ج ٧، ص ٤٥.

(٦) الإفراني محمد الصغير، **نزهة الحادي**، م. س، ص ٥٠٤. الناصري، **الاستقصا**، م. س. ج٧، ص ٤٥ (نقلا عن القادري في نشر المثاني). المشرفي، **الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية**، وعد بعض مفاخرها غير المتناهية، تحقيق إدريس بوهليلة، طبعة ١٩٩٢- ١٩٩٣م، ج٢، ص ٤١٨ - ٤١٩.

(٧) **أبو علي الحسن اليوسي**، ينسب إلى قبيلة آيت يوسى، من قبائل البربر ولد سنة ١٠٤٠ هـ اتصل بالزاوية الدلائية وهو ابن العشرين من عمره سنة ١٠٦٠ هـ، ولم يغادرها إلا بعد أن قضى عليها المولى الرشيد يقول عنه الناصري: "كان رضي الله عنه غزالي وقته علمًا وتحقيقًا وزهدًا وورعًا" وفي سنة ١١٠١هـ زار مصر، وأدى فريضة الحج ثم رجع إلى قبيلته حيث وافته المنية سنة ١١٠٢هـ بتامزيزت ناحية صفرو وهناك دفن، وذكر "جاك بيرك" في كتابه عن اليوسي ثلاثة وثلاثين كتابًا منها شعر في رثاء عبد القادر الفاسي. ثم "زهر الأكم في الأمثال والحكم".

وللمزيد من التفصيل راجع مقال: عباس الجراري "**ببليوغرافيا اليوسي**، أو سيرته الببليوغرافية". وأنظر كذلك، الزياني، **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برًا وبحرًا**، تحقيق عبد الكريم الفيلالي، مطبعة المعارف الجديدة، طبعة ١٤١٢هـ/١٩٩١م ، ص ٥٥ – ٦١ - ١٠٠. الاستقصا، م. س، ج٧، ص١٠٨- ١٠٩. ليفي بروفنسال، **مؤرخو الشرفاء**، تعريب عبد القادر الخلادي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ص٢٦٩. عبد الرحمن الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، دار الكتب المصرية، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م، ج١، ص ٦٨. الزركلي، **الأعلام**، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٦ م ، ج٢، ٢٩٧.

(٨) الكردودي أحمد بن محمد، **الدر المنضد الفاخر**، مخطوط الخزانة العامة، بالرباط، رقم: د١٥٨٤، ص ١٦٠. أكنسوس محمد، **الجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي**، مخطوط الخزانة العامة، الرباط، رقم : ٢٦، ص ٦٤.

(٩) **أبو العباس أحمد بن سعيد المزجلدي**، توفي سنة ١٠٩٤ هـ/ ١٦٨٣م، وهو قاضي فاس ومكناس، من فقهاء المالكية.

للمزيد، أنظر: القادري محمد بن الطيب، **نشر المثاني**، م.س، ج٢، ص ٣٠٦. ومحمد بن جعفر الكتاني، **سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس ممن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس**، ط فاس د. ت، ج٣، ص ٢٠٦. عبد الرحمن بن زيدان، **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، الطبعة الثانية مطابع إديال، الدار البيضاء، ١٩٩٠م، ص: ٣٢٤-٣٢٥. الزركلي خير الدين، **الأعلام**، م.س، ج١، ص ١٣١.

(١٠) **أبي عبد الله محمد بن عبد القادر الفاسي**: ولد سنة ١٠٤٢ هـ/ ١٦٣٢م، وتوفي سنة ١١١٦ هـ/١٧٠٤م، وهو فقيه مالكي من أهل فاس كان ممن يرجع إليه في الحوادث الوقتية والدينية والدنيوية وهو ابن سيدي عبد القادر الفاسي المتوفى سنة ١٠٩١ هـ/ ١٦٨٠ م. الاستقصا، م. س، ج٧، ص١٨.

(١١) المشرفي، م. س. ص ٤١٨- ٤١٩.

(١٢) الضعيف الرباطي، **تاريخ الدولة السعيدة**، تحقيق أحمد العماري، الرباط ١٩٨٦م، ص ٥٩. الاستقصا، م. س، ج٧، ص ٤٦. المشرفي، م. س. ص٤١٩- ٤٢٠.

(١٣) الاستقصا، م. س، ص: ٤٨-٤٩.

R, LE TOURNEAU, ***Fès avant le protectorat : Étude économique et sociale d'une ville de l'Occident musulman***, *1949*.p :84-85.

بينما يرجع « G . Brignon» سبب ذلك إلى رفض الفاسيين تقديم الرماة ودفع الأموال لتنظيم الحملة العسكرية المزمع القيام بها نحو الجنوب. وللتفصيل أكثر أنظر مؤلفه:

Histoire du Maroc, Hatier, Casablanca, 1967, p : 241, 242.

(١٤) الزياني، **الترجمان**، م. س، ص ٧٢٣-٧٢٤. أكنسوس، **الجيش العرمرم**، م. س، ص ٦٤. الضعيف، **تاريخ الدولة السعيدة**، م. س، ص ٦٠. الأفراني، **نزهة الحادي**، م. س، ص ١٠٥. الناصري، **الاستقصا**، م. س، ص: ٤٧-٤٨، القادري، **التقاط الدرر**، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ص ١٧٨. المشرفي، **الحلل البهية**، م. س. ص: ٤١٩- ٤٢٠، (وذكره بابن عبد الملك عوض ابن عبيد.)

(١٥) الاستقصا، م. س، ص ٤٧. الترجمان، م. س، ص ٧٢٣، ٧٢٤.

(١٦) تقع على بعد ٥٢ كلم جنوب مركز تاوريرت من المغرب الشرقي، وقد كانت تسكنها قبائل من زناتة، ولوقوعها على الطريق التجارية فقد قصدها اليهود المهاجرون من الأندلس، وتكونت فيها جالية يهودية، وهي مدينة قديمة أسسها الأفارقة على منحدر جبل منيع جدًا.

أنظر: الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، تحقيق محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ج١، ص ٢٧٣. القادري، **التقاط الدرر**، م. س، ص ١٩١.

(١٧) الشخص المكلف بإبلاغ الأخبار من مكان لآخر، ويكون أمينًا ومسؤولاً. أنظر عبد الرحمن بن زيدان، **العز والصولة في معالم نظم الدولة**، الرباط، ١٩٦١- ١٩٦٢م، ج١، ص ٤٠٧.

(١٨) الترجمان، م. س، ص ٧٢٣ - ٧٢٤. التقاط الدرر، م. س، ص ١٧٨. محمد بن عيشون الشراط، **الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس**، مخطوط الخزانة العامة، الرباط، رقمه: د ١٢٤٦. وأنظر أيضا " le tourneau" في مؤلفه السالف الذكر، ص ٨٥.

(١٩) كان كاتبًا للمولى الرشيد، وقد قتل بأمر من المولى إسماعيل عام ١٠٨٩ هـ، وبعد قتله أمر بجره من تادلا إلى مكناس ثم إلى فاس. للمزيد أنظر: أحمد بن الحاج السلمي، **الدر المنتخب**، م.س، ج٦، ص ١٢٤. الاستقصا، م. س، ص ٤٩؛ وقد ذكره باسم "المنزاري".

(٢٠) الترجمان، م. س، ص ٧٢٣-٧٢٤. الاستقصا، م. س، ص ٤٧.

(٢١) **تاريخ الدولة السعيدة**، م. س، ص ٦٠.

(٢٢) هم فئة متميزة داخل المجتمع الفاسي التقليدي؛ وتطلق هذه التسمية على ذوي الأصل اليهودي الذين اعتنقوا الإسلام خلال حقب مختلفة، وقبل أن يسموا بالبلديين كانوا ينعتون بـ"المهاجرين" أو بـ "الإسلاميين" أو "العوام"، ومن البيانات التي تقدم لتفسير مصطلح "المهاجرين"، أن اليهود الذين رفضوا تبديل دينهم خلال عهد المرينيين أصبحوا ينعتون إخوانهم الذين اعتنقوا الإسلام بالمهاجرين أي الذين هجروا اليهودية إلى الإسلام، إلا أن هذه

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

التسمية اختفت بعد ق ١١م، لتحل محلها تسمية البلديين. ولم يكن المولى إسماعيل ينظر إليهم بعين الرضى، وكان يرى فيهم قوة تعارض سياسته، لهذا نجده يتخذ موقفا جد قاس في حق العالم عبد السلام جسوس.هذا الأخير كان إماما بالمسجد الأعلى، من العقبة الزرقاء من فاس القرويين، درس على سيدي عبد القادر الفاسي وأبي علي اليوسي وأبي عبد الله بردلة وأبي سالم العياشي، توفي قتيلا في سجن فاس ١٥ ربيع النبوي، ١١٢١ هـ نتيجة معارضته لمسألة تمليك الأحرار، ودفن في روضتهم قرب سيدي علي بن أبي غالب داخل باب الفتوح من فاس الأندلس.

نشر المثاني، م. س، ج ٣، ٢٠٧-٢٠٨. **معلمة المغرب**، ج٤؛ محمد المنصور، **البلديون**، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، نشر مطابع سلا، ٢٠٠٥. ص ١٣٣٤.

(٢٣) **رسالة من المولى إسماعيل لأهل فاس**، مؤرخة في سنة ١٧١٨م.

(٢٤) **تاريخ الدولة السعيدة**، م. س، ص ٥٩. الاستقصا، م. س، ص ٤٧.

(٢٥) لهذه العائلة شهرة في الجهاد، وفي حكم تطوان، ومن أبرز أفرادها أحمد بن عيسى الذي قبض عليه المولى الرشيد سنة ١٠٧٨ هـ، أنظر في هذا الصدد: **الجيش العرمرم**، م. س، ص ٥٩. ومحمد داوود، **تاريخ تطوان**، طبعة تطوان، ١٣٧٩هـ، ج ١، ص ١٧٦، ص ٢٥٣.

(٢٦) **الدر المنضد**، م. س، ص ١٤١ - ١٤٢.

(٢٧) **تاريخ الدولة السعيدة**، م. س. ص ٦٨.

(٢٨) **تاريخ تطوان**، م. س، ج ١، ص ٢٥٧. ويذكر الزياني نصًا صريحًا يقر عملية الاغتيال، يقول: "وأمر بقتل مساجين أهل تطوان الذين كانوا بسجن فاس وهم عشرون، وقطعت رؤوسهم"، **الترجمان**، م. س، ص: ٧٢٥- ٧٢٦.

(٢٩) **الترجمان**، م. س، ص ٧٢٣- ٧٢٤.

(٣٠) **نشر المثاني**، م. س، ج٢، ص ٢٠٢. لكن لا نجد أية إشارة لهذه الحادثة سواء عند أحمد بن الحاج السلمي أو الزياني.

(٣١) **تاريخ الدولة السعيدة**، م. س، ص ٦١. **التقاط الدرر**، م. س، ص ١٨٥.

(٣٢) **تاريخ الدولة السعيدة**، م. س، ص ٦١.

(٣٣) **الضعيف**،م. س، ص ٦١. **التقاط الدرر**، م. س، ص ١٩٧.

(٣٤) المرجع نفسه.

(٣٥) هو "أبو محمد عبد الله بن حمدون الروسي، من بني الروسي النازلين بجبل حبيب من بلاد الهبط، قدم والده مدينة فاس واستوطنها وولد عبد الله بها... إلى أن قتل أهل فاس زيدان وخرجوا من بيعة السلطان ثم رجعوا إليها فأخذ مولاي إسماعيل فيما يقوله على فاس، فدله السيد المودن على عبد الله الروسي وألقاه به، فولى أولاد والده حمدون على فاس، وقرب عبد الله إليه فغبط السلطان بخدمته ونصحه، واستوطن مكناس، فكان السلطان إذا احتاج إلى شيء يجده عنده ويشاوره في المهم من الأمور فلا يمضي أمرا إلا عن مشورته، وإذا أمر بكتب رسالة مهمة إلى أحد رسل الكاتب فيملها عليه الروسي وعلا قدره عند السلطان ولم يبلغ أحد ما بلغه الروسي عنده فكان مثل الوزير". **نشر المثاني**، م.س، ص ٢٣٨ - ٢٣٩. وقد كتب إحدى عشر رسالة صادرة عن السلطان من أصل تسع عشرة، وتوفي سنة ١١١٣ هـ/ ١٧٠٢م.

(٣٦) **الاستقصا**، م. س، ص ٩٨. **الترجمان**، م. س، ص ٧٤٣.

(٣٧) **نشر المثاني** ، م. س، ص ٢٦١.

(٣٨) أحمد بن الحاج، **الدر المنتخب**، م. س، ص ١٥٢.

(٣٩) الزياني، **الروضة السليمانية**، مخطوط الخزانة العامة، الرباط، رقم: د ١٢٧٥، ص ٦٧. (ويفهم من سياق الحديث أن الأمر يتعلق بتمويل جيش المولى إسماعيل).

(40) N. Cigar, ***une lettre inedite du Mulay Ismaïl aux gens de Fès***. Hespéris tamuda, 1974, vol XV.

(٤١) يقول بشأنها الونشريسي: "... ومنها المكوس ومحدثات المظالم فإنها أمور جدت في الناس، وكثر العمل بها وشاعت فلحقت بالبدع" المعيار المعرب والجامع المغرب، عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والمغربية، الرباط، ١٩٨١، ج٢، ص ٤٩٢، وانظر كذلك:

(42) Michaux Bellaire, ***les impots Marocains***, Archives marocaines, 1904, T ; I, p 56.

(43) Brignon, histoire du Maroc, p 246.

(٤٤) أحمد بن الحاج السلمي، **الدر المنتخب**، م. س، ج٦، ص٣٨١.

(٤٥) ن. م، ج٧، ص ١٥٤.

(46) N. Cigar, ***une lettre inedite***.

(٤٧) **القادري**، م.س، ج٣، ص ٢٩١.

دورية إلكترونية، مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449